﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر حالَ الكافرين من عدم إغناء أموالِهم وأولادِهم عنهم من عذاب الله شيئًا، وأنَّهم حطبُ النَّار؛ ضربَ لهم مثلًا بآل فرعون، والَّذين مِن قبلهم، فَهُمْ أَشْبَهُ النَّاس بهم، حيثُ إنَّهم لازموا الكُفر، وداوموا عليه، فعاقَبهم الله في الدُّنيا بسبب ذنوبهم، وتوعَّدهم بالعذاب في الآخرة، فلْيحذرِ الكافرون أن يُصيبَهم مثلُ ما أصابَ آلَ فرعون ومَن قبلَهم من العذاب.

الكفرة القدامى والجدد، لن يغني عنهم من عقاب الله مالٌ ولا ولد

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَدَأۡبِ﴾: الدَّالُ وَالْهَمْزَةُ وَالْبَاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُلَازَمَةٍ وَدَوَام، فَالدَّأْبُ: الْعَادَةُ وَالشَّأْنُ، قَالَ الْفَرَّاءُ: الدَّأْبُ، أَصْلُهُ مِنْ دَأَبْتُ، إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ حَوَّلَتْ مَعْنَاهُ إِلَى الشَّأْنِ، وَدَأَبَ الرَّجُلُ فِي عَمَلِهِ؛ إِذَا جَدَّ، وَأَدْأَبْتُهُ أَنَا إِدْآبًا، وَالدَّائِبَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ [إبراهيم: 33-34].

"الدُّؤوب: المُبالَغَة في السَّير، أَدْأَب الرَّجُلُ الدّابَّة: أتعبها، الدّأب: السّوْق الشَّديدُ والطَّرْد، دأبَ في عمله: جدَّ وتَعِبَ، وكلُّ ما أَدَمْتَه؛ فقد أَدْأَبْتَه".

والمعنى المحوريُّ: الاستمرار في إتيان الشَّيء بِجدٍّ لدفعٍ يمنع الفتور، كما في الاستعمالات المذكورة، ومنه "الدّأب بالفتح وبالتَّحريك: العادة الملازمة ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[1].

2) ﴿ءَالِ﴾: الآل: الشَّخص، والآل: عُمد الخيمة، وآلُ الرَّجل: أهله وعياله، كما في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ [آل عمران: 33]، وقد يتوسَّع،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دأب).

فيشمل الآلُ الأعوانَ والأنصارَ أو الجنود: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [البقرة: 50]، ثُمَّ القوم: ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ﴾ [الأعراف: 141][1].

3) ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾: لقب يقال لملوك مصر القديمة[2]، اختلفوا في عربيَّة هذا اللَّفظ: فمنهم من قال بعربيَّته، وذهب إلى اشتقاقه من الفَرْعَنَة: الكِبْر والتَّجَبُّر، وفِرْعَوْنُ كُلِّ نَبِيٍّ: مَلِكُ دَهْره، قَالَ القَطامِيُّ:

وشُقَّ البَحْرُ عَنْ أَصحابِ مُوسَى*** وغُرِّقَتِ الفَراعِنَةُ الكِفارُ[3]

الكِفارُ: جَمْعُ كَافِرٍ كَصَاحِبٍ وَصِحَابٍ، وَفِرْعَوْنُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ هَذَا، وإنما تَرَكَ صَرْفَهُ – في قَوْلِ بَعْضِهِمْ –؛ لأَنَّه لَا سَمِيَّ لَهُ، كإبليس فيمَنْ أَخذه مِنْ أَبْلَسَ، قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: وَعِنْدِي أَنَّ فِرْعَوْنَ هَذَا العَلَم أَعجميٌّ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُصْرَفْ، الْجَوْهَرِيُّ: فِرْعَوْنُ لَقَبُ الْوَلِيدِ بْنِ مُصْعَبٍ مَلِكِ مِصْرَ، وكلُّ عاتٍ فِرْعَوْنٌ، والعُتاةُ: الْفَرَاعِنَةُ، وَقَدْ تَفَرْعَنَ، وَهُوَ ذُو فَرْعَنَة، أَي: دَهاء وتَكَبُّر[4]، والصَّواب أنَّه معرَّب، وفيه نقاش طويل، ليس هذا مجاله[5]، وقد ذكر العلَّامة ابنُ كثير طرفًا منه، ثم قال: وأيًّا ما كان؛ فعليه لعنةُ الله.[6]

4) ﴿كَذَّبُواْ﴾ الْكَافُ وَالذَّالُ وَالْبَاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّدْقِ، وَتَلْخِيصُهُ أَنَّهُ لَا يَبْلُغُ نِهَايَةَ الْكَلَامِ فِي الصِّدْقِ، مِنْ ذَلِكَ الْكَذِبُ خِلَافُ الصِّدْقِ، كَذَبَ كَذِبًا، وَكَذَّبْتُ فُلَانًا: نَسَبْتُهُ إِلَى الْكَذِبِ، وَأَكْذَبْتُهُ: وَجَدْتُهُ كَاذِبًا، يقال كَذَب الحرُّ: انكسر، والعينُ: خانها حِسُّها، والسَيْرُ: إذا لم يَجِدَّ. والمعنى المحوريُّ: نَقْص الحِدَّة والشدَّة الجارية في الشَّيء، أو المتوقَّعة منه كانكسار الحرِّ الجاري، ونَقْص حِسِّ العين، ومنه "الكَذِبُ من القول"؛ لأنَّه نَقْص، بل فَقْد للمتوقَّع من الكلام، بل لِما وُجد من أجله، وهو التَّعبير عن حقيقة ما في النَّفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾ [الزمر: 3][7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أول)، والراغب، المفردات: (آل)، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أول).

(2) فرعون كان لقبًا للملوك المتأخرين لمصر القديمة، لم يلقِّب المصريون حاكمَهم (فرعون) حتى الأسرة الثانية عشرة (1304 - 1554ق.م) الموسوعة العربية العالمية: 17/304.

(3) البيت من بحر الوافر، للقطامي التغلبي، وهو في ديوانه، ص: 345.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (فرعن).

(5) للاستزادة يراجع: رؤوف أبو سعدة، العلم الأعجمي في القرآن مفسَّرًا بالقرآن من إعجاز القرآن: 2/33 - 49.

(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/161.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كذب).

5) ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: المعنى المحوريُّ: بقاء الشَّيء في مكانه شاخصًا، أي: مجسَّمًا، علامةً لشيء، وأَصْلُ آيَةٍ: أَأْيَةٌ بِوَزْنِ أَعْيَة، مَهْمُوزٌ هَمْزَتَيْنِ، فَخُفِّفَتِ الْأَخِيرَةُ فَامْتَدَّتْ، والآية: هي العلامة الظَّاهرة، والصَّحيح أنَّها مشتقَّة من التَّأيِّي الَّذي هو التَّثبُّت، قال ابن منظور: "يقال: قد تأيَّيت، أي: تلبَّثت، وتحسَّبت"، والإقامة على الشَّيء.

يقال: تأيَّ، أي: ارفقْ، "والتَّأيِّي: التَّنظُّر والتُّؤدة، يقال: تأيَّا الرَّجل؛ إذا تأنَّى في الأمر"، أو من قولهم: أوى إليه، ومن كون الشَّيء المجسَّم الشَّاخص علامة على شيء كان كما سبق.

كثُر في القرآن الكريم لفظ (آية) بمعنى: علامة إعجازيَّة ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: 73]، أي: علامة على صدق النَّبيِّ عليه السلام - سيِّدنا صالح هنا -، وأنَّه مرسل من عند الله، أو علامة لأمر من عند الله، وإن لم يكن من باب المعجزات: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ﴾ [آل عمران: 41]، أو علامة دالَّة على وجود الخالق وصُنعه في هذا الكون من مثل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصّلت: 53][1] والمقصود بالآيات هنا ما جاء به الرُّسل من الكتب المنزَّلة والمعجزات.

6) ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾: الْهَمْزَةُ وَالْخَاءُ وَالذَّالُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ تَتَفَرَّعُ مِنْهُ فُرُوعٌ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى، أَمَّا (أَخَذَ)؛ فَالْأَصْلُ حَوْزُ الشَّيْءِ وَجَبْيُهُ وَجَمْعُهُ، تَقُولُ: أَخَذْتُ الشَّيْءَ آخُذُهُ أَخْذًا، قَالَ الْخَلِيلُ: هُوَ خِلَافُ الْعَطَاءِ، وَهُوَ التَّنَاوُلُ، نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارة بالقهر، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: 67]، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النّازعات: 25]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [هود: 102]، ويعبَّر عن الأسير بالأخيذ والمأخوذ[2].

7) ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: الذَّالُ وَالنُّونُ وَالْبَاءُ، أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا: الْجُرْمُ، وَالْآخَرُ: مُؤَخَّرُ الشَّيْءِ، وَالثَّالِثُ: كَالْحَظِّ وَالنَّصِيبِ، وهو في الآية هنا بمعنى: " الإثم والجُرْم والمعصية"، والذَّنب في الأصل: الأخذ بذنَب الشَّيء، يقال: ذنبته: أصبت ذنَبه، ويستعمل في كلِّ فِعل

(1) الراغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أبي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أخذ).

يُستوخم عقباه اعتبارًا بذنَب الشَّيء، ولهذا يسمَّى الذَّنْب: تبعة، اعتبارًا لما يحصل من عاقبته؛ قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۗ﴾ [آل عمران: 11]، وقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ [العنكبوت: 40]، وقال: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 135][1].

8) ﴿شَدِيدُ﴾ الشِّينُ وَالدَّالُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ فِي الشَّيْءِ، وَفُرُوعُهُ تَرْجِعُ إِلَيْهِ[2].

9) ﴿ٱلْعِقَابِ﴾: الْعَيْنُ وَالْقَافُ وَالْبَاءُ: أَصْلَانِ صَحِيحَانِ: أَحَدُهُمَا: يَدُلُّ عَلَى تَأْخِيرِ شَيْءٍ وَإِتْيَانِهِ بَعْدَ غَيْرِهِ، وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: يَدُلُّ عَلَى ارْتِفَاعٍ وَشِدَّةٍ وَصُعُوبَةٍ.

والعقوبة والمعاقبة والعقاب يختصُّ بالعذاب، قال ﷻ: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: 14]، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [الحشر: 4]، ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ﴾ [النَّحل: 126]، ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ [الحج: 60]، والتعقيب: أن يأتي بشيء بعد آخر[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هلاك الظالمين الفجرة، عبرة للفاسقين الكفرة

عادة هؤلاء الكافرين في تكذيب الحقِّ كعادة آل فرعون ومَن قبلَهم: من قوم نوح وقوم هود وقوم لوط وأمثالهم، فكما أنَّ آل فرعون لم تُغنِ عنهم أموالهم ولا أولادهم، فأُخذوا في الدُّنيا، وعُذِّبوا في الآخرة، فكذلك هؤلاء، فجازاهم الله بسبب ذنوبهم، فأهلكهم، وَاللَّه شديدٌ عقابُه، أليمٌ عذابُه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية الكريمة:

دلالة الاستئناف البياني، على إيضاح ما في الآية من المعاني

جاءت الآية الكريمة ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ دون عطف؛ لأنَّها استئناف بيانيٌّ لما قبلها؛ فكأنَّه لمَّا ذكر عذابَ الكافرين سُئل: ما سببُ هذا العذاب؟ فأُجيب: حالُهم في الكفر والتَّكذيب واستحقاق العذاب كحال آل فرعون ومَن قبلَهم[4].

(1) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ذنب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شدد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات: (عقب).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/91.

إعراب حرف الكاف وأثره في المعنى:

ورود الكـــاف بمعنى مثل، وسيلة للإيضاح المفيد

الكاف اسم بمعنى: مِثْل، في محلِّ رفع على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف، والتَّقدير: دأبُ هؤلاء كدأب مَن قبلهم، ولك أن تجعل الكاف حرفَ جرٍّ، فيكون الجارُّ والمجرور متعلِّقَين بمحذوفٍ خبر لذلك المبتدأ المحذوف، ويجوز نصبُ محلِّ الكاف ومدخولها على المفعوليَّة المطلقة أو الحال[1].

وقد جاءت الكاف وسيلةً للإيضاح، فقامت هي وما بعدها مقامَ المثال للقاعدة، وغيرُ خافٍ ما للمثل الَّذي يُضْرَب من التَّأثير والإقناع.

بيان التَّشبيه وبلاغته في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تشبيه، اختلف العلماء في بيانه، وأرى أنَّ تحرير محلِّ النِّزاع يتطلَّب بيان المقصود بالدَّأب أوَّلًا، ثُمَّ بيان المشبَّه ووجه الشَّبه بعد ذلك، وخلاصته كما يأتي:

معنى (الدَّأْب) ودلالته:

سبق بيان معناه من جهة المعاجم، والكلام هنا مختصر؛ ليناسب المقام، حيث بيانُ وجه الاستعمال حقيقةً أو مجازًا.

أولًا: المراد به حقيقةُ اللَّفظ، وهو أنَّ الدَّأب هنا الاجتهاد، مأخوذ من قولهم: دأبْت في الأمر؛ إذا اجتهدت فيه، ومن أبرز معنى الجِدِّ والاجتهاد قوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: 47]، أي: بِجِدٍّ واجتهاد باستمرار.

وعليه يكون المعنى اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النَّبيِّ ﷺ كتظاهر آل فرعون على موسى عليه السلام أي: إنَّ اجتهادهم يحتمل أمرين:

(1) كاجتهادهم في نصرة الكفر على الإيمان.

(2) كاجتهادهم في الجحود والبهتان[2].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/463.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 1/372، الرازي، مفاتيح الغيب: 7/153، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (دأب).

ثانيًا: المراد بالدَّأْب الحالُ والشَّأنُ والعادة؛ لأنَّ من يستمرُّ في عمل أمدًا طويلًا يصير عادة من عاداته، وحالًا من أحواله، فهو من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللَّازم، فهو مجاز مرسل، علاقته الملزوميَّة[1]، وعليه يكون المعنى أحدَ وجهين:

(1) كعادتهم في التَّكذيب بالحقِّ.

(2) كعادتهم في عقابهم على ذنوبهم، فيكون هذا الأخير من إضافة المصدر إلى مفعوله؛ لأنَّ المضاف إليه هنا ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ معاقَبون، في حين أنَّه - في غير هذا المعنى - مضاف إلى فاعله.

المشبَّه ودوره في السّياق:

ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّهم مشركو قريش يوم بدر، كانوا في انتقام الله منهم لرسله والمؤمنين، كآل فرعون في انتقامه منهم لموسى وبني إسرائيل، فيكون هذا تذكيرًا للرَّسول ﷺ والمؤمنين بنعمة سبقت؛ لأنَّ هذه الآية نزلت بعد بدر استدعاءً لشكرهم عليها.

والقول الثاني: إنَّها عامَّة في الكافرين جميعًا، ولا سيَّما اليهود المنكرين لرسالته ﷺ كما سيأتي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، وعليه يكون وعدًا بنعمةٍ مستقبَلة؛ لأنَّها نزلت قبل قتل يهود بني قينقاع، فحقَّق وعده، وجعله معجزًا لرسوله ﷺ.[2]

والقول الثالث: أن المشبَّه هو أنَّ أموالهم وأولادهم لا تنفعهم في إزالة العذاب، فكان التَّشبيه بآل فرعون حاصلًا في هذين الوجهين، والمعنى: أنَّكم قد عرفتم ما حلَّ بآل فرعون ومَن قبلَهم من المكذِّبين بالرُّسل من العذاب المعجَّل الَّذي عنده لم ينفعهم مال ولا ولد، بل صاروا مضطَّرِّين إلى ما نزل بهم، فكذلك حالكم أيُّها الكفَّار المكذِّبون بمحمَّد ﷺ في أنَّه ينزل بكم مثلُ ما نزل بالقوم تقدَّم أو تأخَّر، ولا تغني عنكم الأموال والأولاد[3].

(1) إطلاق اسم الملزوم على اللازم: مثال ذلك: دخلت الشَّمس من النَّافذة والمقصود نورها لا جرمها. فكلمة الشَّمس مجاز مرسل علاقته الملزومية، ولأنَّ المعنى الحقيقيَّ للشَّمس: هو جرمها، وجرمها ملزوم للمعنى المجازي الَّذي هو الضوء، والقرينة (دخلت). قاسم، علوم البلاغة: ص 222.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 1/372.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/154.

وجه الشَّبه وأثره في الكلام:

أوَّلًا: على أنَّ الدَّأْبَ بمعنى: الجدِّ والاجتهاد، يكون وجهُ الشَّبه: هو جِدُّ الفريقين واجتهادهما في التَّكذيب والكفر، أي: اجتهادهم في تكذيبهم بالنَّبيِّ محمَّد ﷺ وكفرهم بدينه كاجتهاد آل فرعون مع موسى عليه السلام ثمَّ إنَّا أهلكنا أولئك بذنوبهم، فكذا نهلك هؤلاء.

ثانيًا: على أنَّ الدَّأْبَ بمعنى: الحال والشَّأن والعادة، أي: حال هؤلاء في الكفر واستحقاق العذاب كحال آل فرعون[1]، يعني: أنَّ صنيع الكفَّار معك، كصنيع آل فرعون مع موسى[2].

العدول عن قوله (قوم فرعون) إلى قوله ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾:

علّة إطلاق الآل على أشدِّ النَّاس اختصاصًا بالمضاف إليه

أريد بآل فرعون: فرعونُ وآلُه؛ لأنَّ الآل يُطلق على أشدِّ النَّاس اختصاصًا بالمضاف إليه، والاختصاص هنا: اختصاص في المتابعة والتَّواطؤ على الكفر، كقوله: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: 46]، فلذكر الآل هنا من الخصوصيَّة ما ليس لذكر القوم؛ إذْ قوم الرَّجل قد يخالِفون، فلا يدلُّ الحكم المتعلِّق بهم على أنَّه مساوٍ لهم في الحكم، قال تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: 60]، وقال: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَۚ﴾ [الشعراء: 10-11][3].

نكتة ذكر آل فرعون، والعدول عن ذكر فرعون وحده:

ذكر آل فرعون، يدلّ على أنّهم السَّبب في طغيانه

إنَّ ذِكر آل فرعون يتضمَّن ذِكر فرعون؛ لأنَّه إذا كان العناد في التَّابع؛ فهو في المتبوع أشدُّ؛ وفوق ذلك فإنَّ آل فرعون وحاشيته ونصراءَه هم السَّبب في طغيانه، وهم الَّذين سهَّلوا له سبيل الطُّغيان، وضنُّوا بالموعظة في إبَّانها، وهم الَّذين حرَّضوه على

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/91.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 1/196.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/33.

الاستمرار في الشَّرِّ والإيغال فيه، فهم اتَّبعوه أوَّلًا، ثم حرَّضوه على الطُّغيان ثانيًا بمبالغتهم في مرضاته، واستحسان ما يفعل[1].

سرُّ تخصيص ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، وعطف عبارة ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾:

ضرب المثل بآل فرعون، للعلم بهلاكهم، وقرب عهدهم بهم

تخصيص آل فرعون بالذِّكر - من بين بقيَّة الأمم - لأنَّ هلْكهم معلوم عند أهل الكتاب، بخلاف هلْك عادٍ وثمودَ، فهو عند العرب أشهر، ولأنَّ تحدِّي موسى إيَّاهم كان بآيات عظيمة، فما أغنتهم شيئًا تُجاه ضلالهم، ولأنَّهم كانوا أقرب الأمم عهدًا بزمان النَّبيِّ ﷺ فهو كقول شعيب: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: 89]، وكقول الله تعالى للمشركين: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: 76][2].

ولأنَّهم هم الَّذين حرَّضوه على الشُّرور والآثام والطُّغيان، فلقد حكى القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: 127][3].

ولأنَّ فرعون كان أشدَّ الطُّغاة طغيانًا، وأكبرهم غرورًا وبطرًا، وأكثرهم استهانةً بقومه، واحتقارًا لعقولهم وكيانهم، ألم يقل لهم، كما قصَّ القرآن: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النَّازعات: 24]، ألم يبلغ به غروره أن يقول لهم: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزُّخرُف: 51]، ألم يقل لوزيره: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ﴾ [غافر: 37]، ولقد وصف الله تعالى قوم فرعون بهوان الشَّخصيَّة، وتفاهة العقل، والخروج عن كلِّ مكرمة، فقال: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزُّخرُف: 54]؛ لأنَّ الأمَّة الَّتي تترك الظَّالم وبطانتَه يعيثون في الأرض فسادًا لا تستحقُّ الحياة، ولا يكون مصيرُها إلَّا إلى التَّعاسة والخُسران[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1122.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/40.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/40.

وآل فرعون من الفئات المشاركة والمساندة لحكم فرعون ونظامه، وقد لعبوا دورًا مُهِمًّا في ظهور شخصيَّة فرعون، ذلك أنَّهم اتَّصفوا بصفات جعلتهم أداة طيِّعة بيد فرعون، أهمُّها الكفر والتَّكذيب بآيات الله، حتى صاروا لظلمهم ومظاهرتهم للظَّالم الطَّاغي مَضربًا للمثل في صنيعهم ومشايعتهم لفرعون، يقول تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، فمن دأبهم وشأنهم وعادتهم الكفر بآيات الله والتَّكذيب، فكيف لا يكونون دعامة لحكم فرعون الكافر المكذِّب؟[1].

بلاغة الفصل في قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

الاستئناف البيانيّ، غايته إيضاح دأب آل فرعون

قوله: ﴿كَذَّبُواْ﴾ بيان لدأبهم، استئناف بيانيٌّ، تفسير لصنيعهم الباطل، ودأبهم على الفساد والضَّلال.

علَّة إضافة الآيات إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

إضافة ضمير العظمة للآيات، من أقوى ما يتضمّنه اللّفظ من دلالات

في إضافتها إلى الله تعالى تعظيم لها، وتنبيه على قوَّة دلالتها على الحقِّ والخير، وأتى بضمير الفاعل المعظِّم نفسَه؛ لما في الآيات المُنَزَّلة من عظيم الدلائل والبراهين السَّاطعة، والحجج القاطعة على وحدانيَّة الله، وصدق الرُّسُل في التَّبليغ.

نكتة إيثار الضَّمير بين قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وقوله ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 52]:

ذكر المضمر والظّاهر، يستوعب معنى الرّسالات الثّلاث الطّواهر

جاء قوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إخبارًا عن الله تعالى؛ فكان بناؤها على الآية الَّتي قبلها أولى، فاقتضى العدول عن اسم الجلالة إلى ضمير العظمة، كما كان في الآية الأخرى، فاقتضى بناؤها على الآية الَّتي قبلها العدول عن لفظ الإضمار إلى لفظ الإظهار، فجرى الخبر في هذه الآية على اللَّفظ الظَّاهر[2].

ولمَّا تقدَّم قبلها ذكر تنزيل الكتب الثَّلاثة، والإشارة إلى ما

(1) قاسم خضر، شخصية فرعون في القرآن، ص: 162.
(2) الإسكافي، درة التَّنزيل، ص: 356 - 371.

تضمَّنته من الهدى والفرقان؛ أتى على من كفر بصدِّه عنها وتكذيبه؛ ناسب ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، ولمَّا لم يقع في سورة الأنفال من أوَّلها إلى الآية الأولى من الآيتين ذِكْرُ شيء من الكتُب المنزَّلة، ولا ذكر إنزالها، وإنَّما تضمَّنت حال المسلمين مع معاصريهم من كفَّار العرب، ومعظم ذلك في قتالهم وحربهم؛ ناسب ذلك التَّعبير بالكفر، فقال تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 52]، ثُمَّ لمَّا تلتها الآية الأخرى من غير طول بينهما وقع التَّعبير فيها بالتَّكذيب، فقال: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: 54]، وعدل عن لفظ ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لثقل التَّكرُّر مع القرب، وليَحْصُلَ وَسْمُهم بالكفر والتَّكذيب[1].

نكتة التَّعبير بالأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

الأخـــذُ شـدَّة العـقـوبـة، بلا فكاك عنها، ولا مهرب منها

في التَّعبير بالأخذ إشارة إلى شدَّة العقوبة، فهو - سبحانه - قد أخذهم كما يؤخذ الأسير الَّذي لا يستطيع فكاكًا من آسِره، ولا يقدر على التَّخلُّص[2].

وعليه؛ فالأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ هو أخذ الانتقام في الدُّنيا كقوله: ﴿أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: 44]؛ إذ الأصل أنَّ حال المشبَّه أظهر من حال المشبَّه به عند السَّامع[3].

بلاغة التَّصريح باسم الجلالة في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

ذكـــر صـفـة الألوهيَّة، دلالة عـلى تفريطهم في جـنـب ربّ البريّة

التَّصريح باسم الجلالة لإلقاء الهيبة في القلوب، ولإقامة الحجَّة عليهم بألوهيَّته المتضمِّنة معنى: العبادة، وقد ناوؤوه بكفرهم وتكذيبهم، فأخذهم اللَّه الَّذي خاصموه، وتركوا عبادته، بل جحدوا به، وكذَّبوا بآياته.

فالَّذي حقَّت له العبادة، وعظمت منه النِّعمة؛ أخذهم بذنوبهم،

(1) ابن الزّبير، ملاك التأويل، ص: 78.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/153، 154.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/174.

والله تعالى يعاقب الكفَّار عقوبة تشدُّ عليهم، ولا تخفَّف عنهم؛ لِما قدَّموا من العصيان ما استمرَّ مثله، ولم ينقل عنه قدم، ولا عقبه بعد الإصرار عليه ندم، فهذه فائدة العدول إلى لفظة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دون قوله: (فأخذناهم)[1].

سرُّ الالتفات من التكلُّم إلى الغيبة في قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

الاحتجاج بأسلوب الالتفات على ما يستحقُّه جلَّ وعلا من العبوديَّة

لَمَّا كان أصل الكلام: هو الإخبار عن نفسه في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ كَانَ الْقيَاس فأخذناهم، لَكِن لَمَّا عدل فِي الْآيَة الأولى إِلَى قَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران: 9]؛ عدل فِي هَذِه الْآيَة أَيْضًا؛ لتَكون الْآيَات على مَنْهَج وَاحِد[2].

وعليه؛ فإنَّ ذكر اسم الجلالة الصَّريح التفاتٌ من التَّكلُّم إلى الغيبة، لما سبق من الاحتجاج به على ما يستحقُّه جلَّ وعلا من العبوديَّة المتضمِّنة في ألوهيَّته سبحانه، ولما فيه من اتِّصال الضَّمير، وتقديم المفعول به على الفاعل، وهو الضَّمير (هُم) من معنى المفاجأة والبغتة وشدَّة الغضب، وكيف لا؟ وقد جاءهم من الآيات ما فيه مدَّكر، ومن الأنباء ما فيه مزدجر، وإنَّها لأَخْذَةُ أَسفٍ.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾:

الذّنوب سبب استحقاق العذاب، ونيل أليم العقاب

الباء للسَّببيَّة، أي: أخذهم بسبب ما اجترحوه من ذنوب، أو الملابسة والمصاحبة، أي: أخذهم، وهم متلبِّسون بذنوبهم، دون أن يتوبوا منها، أو يقلعوا عنها، والجملة على الوجهين تدلُّ على كمال عدل الله تعالى؛ لأنَّه ما عاقبهم إلَّا لأنَّهم استحقُّوا ذلك، وأصل الذَّنْب: الأخذ بذَنَب الشَّيء، أي: بمؤخِّرته، ثُمَّ أطلق على الجريمة؛ لأنَّ مرتكبها يعاقَبُ بعدها[3].

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 361.
(2) الكرماني، توجيه متشابه القرآن: ص 88.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/41.

دلالة وضع المُظهر موضع المُضمر في قوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

إيـــراد لـفـظ الجلالة ظاهرا، زيـادة وعـيـد، وإقـامـة الحجَّة على كلّ عنيد

لمَّا كان معنى قولنا: ﴿وَٱللَّهُ﴾ بمعنى: الإله، والإله مشتقٌّ من: أَلِهَ يَأْلَه، أي: عبَد يعبُد عبادة، فالإله: هو الَّذي حقَّت عبادته؛ لمَّا عظمت نعمته، وكان العدول إلى اسم الجلالة - للاحتجاج بمعناه - فائدة لم تكن لتحصل؛ لو قال: (وهو شديد العقاب)[1]، وليرفع اللَّبس في عود الضَّمير إلى العذاب المفهوم من الأخذ.

بلاغة تذييل الآية وعلاقته بالسِّياق:

مهمّة التّذييل، تقرير المضمون الـوارد قبله في السّياق

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله من الأخذ وتكملة له، ناسب هذا التَّذييل ما جاء في الآية الكريمة من المثل المضروب للكافرين، من تشبيه حالهم في التَّكذيب، وما سيحلُّ بهم من العذاب، بحال آل فرعون ومن قبلهم، من التَّكذيب بالآيات والتَّنكيل بهم، فأظهر الاسم الجليل الشَّريف، ولم يُضمر؛ للتَّنبيه على زيادة العظمة في عذابهم لمزيد اجترائهم، واللّٰه تعالى الملك الَّذي لا كُفْءَ له في جبروته، ولا شيء يشبهه من نعوته، شديد العقاب لا يعجزه شيء[2].

توجيه المتشابه اللَّفظي:

جاءت آيتان أخريان تشابهتا مع قوله تعالى هنا: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11]، وهما متتاليتان، لم يَفصل بينهما سوى آية، وهو قوله تعالى في سورة الأنفال:

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾ [الأنفال: 52]، وقوله تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم

(1) الإسكافي، درة التنزيل: ص 359.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/26، أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/11.

﴿بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: 54]، تلك آيات ثلاث متشابهات، نكتفي بتوجيه ما لم يُذكَر في الإيضاح اللُّغويِّ والبلاغيِّ، فنقول:

في الآية الأولى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ؛ لتعظيم الآيات، وتهويل جُرْمهم، ومناسبة السِّياق في ذكر التَّوراة والإنجيل والفرقان، وفي الآية الثَّانية: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 52]؛ لمناسبة الصِّراع القائم حينئذٍ بين الكفَّار والمؤمنين، ولتقدُّم ذكر الملائكة والشَّيطان، وكلٌّ له فِعْلٌ، ولكن فعلَهم بأمر الله، فناسب إضافة الآيات إلى اسم الله؛ ليُعلم أنَّ الأمر له ﷻ، وأنَّه مُريهم الآيات، ولا فعل إلَّا له، وأنَّ الملائكة مسخَّرون بأمره، وفعلهم من خلقه، وتزيين الشَّيطان لهؤلاء الكفَّار إنَّما هو بقدر الله، وسابق مشيئته، وكلٌّ ذلك خلقه وملكه، والآيات آياته، وله المثل الأعلى.

وفي الآية الثَّالثة: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: 54]؛ ليجمع في وصفهم بين الكفر والتَّكذيب، وليجري مع ما تقدَّمه متَّصلًا به من ذكر النِّعم، فناسبه ذكر ملكيَّته سبحانه لهم بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: 54]، فهو المحسن والمالك، ثم جرى القدر بما سبق لهم، فإيراد قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: 54] أوقع في نفوسهم وأشدُّ في تحسُّرهم وندامتهم، إذا شاهدوا الأمر؛ فعلموا أنَّه مالكهم، وأنَّه ابتدأهم بالنِّعم، فغيَّروا، فحصل من ذلك أنَّهم قابلوا نِعَم ربِّهم بالكفر مع بيان الأمر ووضوحه، ولو قيل: بآيات الله؛ لما أحرز هذا المعنى[1].

وسرُّ تكرار الآيتين من سورة الأنفال في موضعين لا يحجز بينهما إلَّا آية واحدة؛ لوجود نوعين مختلفين من العذاب فيهما، وإذا كان لم يكن تكرار؛ لأنَّه في الآية الأولى عقوبته إيَّاهم عند الموت، والبشارة الَّتي أتتهم بعذاب الحريق، وأنَّه فعل بهم ذلك كما فعله بآل فرعون، ومَن كان قبلهم من الكفَّار، ثمَّ ذكر في الثَّانية ما يفعله بهم من شدَّة عقابه بعد الموت كما فعله بآل فرعون، ومَن كان قبلهم من الكفَّار، وما أجرى عليه العادة في تعذيبه إيَّاهم بعد الموت في القبور وغيرها.

أو أنَّه أخبر في الأولى عمَّا عاقبهم به من العذاب الذي لم يملك النَّاس إيقاعه، ولم يُمكَّن بعضُهم من أن يفعل ببعض مثلَه، وهو ضربُ الملائكة وجوهَهم وأدبارَهم عند نزع

(1) ابن الزّبير، ملاك التأويل: ص 77 - 79.

أرواحهم، وإخبارُهم إيَّاهم بمصيرهم إلى عذابٍ يحرقهم، وفي الثَّانية أخبر عمَّا أنزله بهم من العذاب الَّذي مُكِّن النَّاسُ من فعل مثله، وهو الإهلاك والإغراق؛ لأنَّ ذلك ممَّا أقدر الله تعالى العبادَ عليه،

فالنَّوعان هما: العذاب الأوَّل من أحكام الآخرة بعد ظهور أشراط السَّاعة، والعذاب الثَّاني من أحكام عذاب الدُّنيا، والَّذي يبيِّن ذلك أنَّه قال في الآية الأولى من سورة الأنفال: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 52]، فأخبر عن أعظم ما ارتكبوه، وهو الكفر، وذكر آيات الله وهو الاسم الَّذي يفيد استحقاق العبادة الَّتي هي مضادَّة الكفر، أي: أخذهم من أنعم عليهم؛ ليشكروا لمَّا عصوا، وكفروا بذنوبهم الَّتي ارتكبوها(1).

وأمَّا اختيار لفظة: ﴿كَفَرُواْ﴾ على لفظ: (كذبوا)؛ فلأنَّ الآية، وهي ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، لمَّا أعيدت؛ دلَّت إعادتها على أنَّ المراد التَّأكيد لبيان قبح حالهم، فكان التَّصريح بالكفر أوقع، ولمَّا صرَّح بالكفر بعد التَّأكيد بالإعادة - لا جرم - أكَّد الكلام بعد ذلك، فقيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٥٢﴾ [الأنفال: 52](2).

وأمَّا الحكاية في ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم﴾ [الأنفال: 54]؛ فللتَّفنُّن في الكلام، ولئلَّا يخلو عمَّا هو أصل الكلام(3).

وفي الآية الثانية من الأنفال تفصيل عقابهم بإغراق آل فرعون وأخذ من عداهم بغير ذلك، وقال: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ [الأنفال: 54]؛ ليخالف قوله تعالى في الآية قبل: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ [الأنفال: 52]؛ لاستثقال لفظ التَّكرار فيما تقارب، ولما قصد من التَّفصيل، وقد ضمَّ الفريقين من المهلَكِين بذنوبهم والمغرَقين في قوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٥٤﴾ [الأنفال: 54](4).

قوله تعالى في الآية الأولى من الأنفال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٥٢﴾ [الأنفال: 52] مقابل به قول الشَّيطان لمن قدَّم ذكره من الكفَّار: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 48]، فقوبل قوله المضمحلُّ بإسناد القوَّة لله - ﷻ - كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 356 - 371.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم: 1/589 - 591.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم: 1/589 - 591.
(4) ابن الزبير، ملاك التأويل: ص 77 - 79.

يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ [البقرة: 165]، ولمَّا لم يرد في سورة آل عمران مثل هذا؛ وقع الاكتفاء بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.[1]

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدَّأب ولفظ العادة:

الدَّأب: العادة الَّتي عليها يدوم صاحبها، وهو أخصُّ من العادة، ومنه أدأب في سيره، ولذلك قال الفرَّاء: الدَّأب لزوم الحال الَّتي فيها[2].

والعَادة على ضَرْبَيْنِ: اخْتِيَار أَو اضطرار، فالاختيار: كتعوُّد النَّبِيذ، وَمَا يجْرِي مجْرَاه، مِمَّا يكثر الْإِنْسَان فعله، فيعتاده، ويصعب عَلَيْهِ مُفَارقَته.

والاضطِّرار مثل: أكل الطَّعَام، وَشرب المَاء؛ لإقامة الْجَسَد، وَبَقَاء الرُّوح، وَمَا شاكل ذَلِك.

والدَّأْب لَا يكون إِلَّا اخْتِيَارًا، أَلا ترى أَنَّ الْعَادة فِي الْأكل وَالشَّرب المقيمَيْنِ للبدن لَا تُسَمَّى دأبًا[3].

الآل والقوم:

الْقَوْم: هم الرِّجَال الَّذين يقوم بَعضهم مَعَ بعض فِي الْأُمُور، وَلَا يَقع على النِّسَاء إِلَّا على وَجه التَّبع، كَمَا قال ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: 105]، وَالْمَرَاد الرِّجَال، وَالنِّسَاء تبع لَهُم، والشَّاهِد على مَا قُلْنَاهُ قَول زُهَيْر من الوافر:

وَمَا أَدْرِي وسوف إخال أَدْرِي *** أقوم آل حصن أم نسَاء؟

فَاخْرج النِّسَاء من الْقَوْم[4].

وكلُّ من يؤول إِلَى الرَّئيس فِي خَيرهمْ وشرِّهم، أَو يؤولون إِلَى خَيره وشرِّه؛ فَهُوَ الْآل، وَالْقَوْم أَعمُّ مِنْهُ؛ لِأَنَّ كلَّ من يقوم الرَّئيس بأمرهم، أَو يقومُونَ بِأَمْرِهِ؛ فَهُوَ الْقَوْم[5].

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: ص 77 - 79.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/437.
(3) العسكري، الفروق اللغوية: ص 226.
(4) العسكري، الفروق اللغوية: ص 279.
(5) الكفوي، الكليَّات: (آل) ص 164.

الآل والأهل:

إنَّ الْأَهْل: يكون من جِهَة النَّسَب والاختصاص، فَمن جِهَة النَّسَب: قَوْلك: أهل الرَّجل لِقَرَابَتِهِ الأدنين، وَمن جِهَة الِاخْتِصَاص: قَوْلك: أهل الْبَصْرَة، وَأهل الْعلم، والآل خَاصَّة الرَّجل من جِهَة الْقَرَابَة أَو الصُّحْبَة، تَقول: آل الرَّجل لأَهله وَأَصْحَابه، وَلَا تَقول: آل الْبَصْرَة وَآل الْعلم، وَقَالُوا: آل فِرْعَوْن أَتبَاعه، وَكَذَلِكَ آل لوط[1].

العقاب والعذاب:

إنَّ الْعقَاب ينبىء عَن اسْتِحْقَاق، وَسمِّي بذلك؛ لِأَنَّ الْفَاعِل يسْتَحقُّهُ عقيب فعله، وَيجوز أَن يكون الْعَذَاب مُسْتَحقًّا وَغير مستحقٍّ، وأصل الْعقَاب: التُّلُوُّ: وَهُوَ تأدية الأَوَّل إِلَى الثَّاني، يُقَال: عَقبَ الثَّاني الأَوَّلَ؛ إِذا تلاه، وعقب اللَّيْل نَهَار، وَاللَّيْل النَّهَار هما عقيبان، وأعقبه بالغبطة حسرة؛ إِذا أبدله بهَا، وعقب باعتذار بعد إساءة[2].

العقاب: هو جزاء الشَّرِّ أو الذَّنب، والعذاب: هو تنفيذ العقاب، واللّٰه شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب: وهو الكفر والذُّنوب على اختلاف أنواعها وتعدُّد مراتبها[3].

إشارة إلى أنَّ شدَّة العقاب سببها شدَّة الجريمة وتعليم للنَّاس بأنَّ كلَّ فعل له جزاؤه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ، وتقرير وتأكيد لمضمون ما قبلها[4].

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: ص 281.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: ص 239.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 123.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/41.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»